قصّة قصيرة

وجه مغترب في زحام المدينة *

محمد عبد الرحمن يونس (**)

عندما يبدو الوجه في اليقظة أكثر إشراقاً وتفاؤلاً، فإنه لا يكون إلاّ مجرَّد حلم كاذب، يحاول أن يدغدغ الذاكرة دون أن يستجلي أعماقها. وجهكَ في اليقظة مشرق لكنه يتوغَّل في أعماق الوحدة والغربة الراعفة. يبدو هكذا، لكنك ـ عندما يبدأ الليل ينشر خيوطه ومآسيه وفجائعه ـ تقف وجهاً لوجه مع مأساتك المتأصِّلة وحيداً شريداً تطارد الفراغ والمرارة والبطالة في أزمنة مولانا الباشا والوالي والأمير والإمام. أنت هكذا دائماً. يتحرَّك سرير الآباء والأجداد الميامين قرفاً من وجودك عليه، لكنك تستمرّ في التقلّب والحلم المسروق ألف مرّة في الساعة والدقيقة والثانية. قالت حسناء الوهرانية ذلك، وأغمضت عينيها الماسيَّتين، وعانقت نخيل بسكرة وغرداية، وواحات وهران وشطّ السانية(***) الذي فَرَدَ قلبه وجناحيه لنوارس المساء التي أشعلت بوحها وحزنها. كانت بقية دموع لا تزال تختزن في المحاجر، وكان بحر السانية شفّافاً كوردة لوتس. شدَّت على يدي بحرارة وتابعت: أنتَ مريض أيها الصديق؟ لماذا أنت متجمِّد كالثلج؟ دع جواك ينهمر كسماء ديسمبر. افتح قلبك وصدرك لرياح الشمال الحزينة. كن نخلةً وصفصافةً وابكِ.

ما أجمل البكاء! ما أجمل أن تشتعل دموعك وجسدك في المرافئ والموانئ، والسجون والقلاع. أوه.. ذابل أنت كوردة خريفيّة.. مسحة من صفرة الموت تملأ وجهك، ألا تحسّ بها؟.

المدينة تاج ولؤلؤة وسيف وحصان، ولماذا غريب أنت؟.. وحدك تسافر إلى المنفى والشطّ.. تنتظر السفن المُبحرة.. تعانقها في الحلم واليقظة.. لا سفينة تنقلك.. لا مدينة تنتظرك.. لا أمّ لك.. لا أب.. لا أخ.. السماء الشاسعة والفراغ الرهيب هما المأوى والوطن والحبيبة والوجد والصبابات. كم حزين أنت..! قُمْ بدّدْ هذا الحزن وناجِ سيوف الأجداد، واقرأ معلّقة امرئ القيس وسِينية البحتري.

حاصرتني حسناء بأسئلتها المتراكمة الحادّة، وكأنها شلاّل متدفِّق يحمل معه سيلاً غاضباً من تداخلات حادّة مبهمة غامضة. حسناء سروة شامخة وسماء صافية، لكن الأشياء كانت بالنسبة لي مجرَّد ضباب، لم أستطع النفاذ إلى ما بعدها. تجمَّدت الكلمات في عروقي. صار دمي ثلجاً.. أحسست أن أفعواناً تتداخل فيه الألوان الغامقة والفاتحة يحاصرني، وينشطر إلى مجموعة هائلة تسدُّ عليَّ كل المنافذ. أسجنُ نفسي في قارورة، وألتجئ إلى بطن الحوت، أكفّنُ نفسي بأشرعة بيضاء. وحده بطن الحوت هو الميناء والحِلّ الوفي. أُخرج من جيبي منديلاً أستجمع به قطرات عرقي ودمي الراعفة التي تناثرت فوق جبهتي.. ابتلّ المنديل كلّه ومازال العرق ينضح، والدماء تنزف، ويتحوَّل جسدي إلى بركة تستجمع كل سيلاناته، وحسناء تراقب نوارس المساء، وسيارات البويك والشوفرليه الحمراء والسوداء التي تملأ ساحات المدينة كآبة ووحشة.

* * *

البارحة عند مفترق طريق الجامعة كانت تمشي وحيدة صامتة كنورس فقد أعزَّ أصدقائه. كلّ ما فيها باهت، ومطر يتساقط بغزارة لم يُشهد له مثيل قبل تسع سنوات. تساقط المطر، غطّى سطوح المنازل القرميديّة، عانقته الجامعة وبكت.. أيها الحبيب، تعالَ اغسلْ قلبي وروحي ومدرّجاتي، وضُمَّني إليكَ، وابنِ لي جزيرة نائية واحملني على أشرعة الموجة فقد مللتُ صخب المدينة، وعفونة الطلبة. حفر المطر أخاديد واسعة وسط الشارع، بكت المدينة وقرَّر الشارع أن يرفض كل المارِّين وينام ألف عام. رغم ذلك فتحت صدرها وقلبها لماء المطر الحزين. نزعت معطفها المطريّ.. فردَت قلبها، وتركت مظلّتها المطريّة تغنّي أجمل أغنياتها لرياح المدينة. حلّت شعرها، أرخته ضفيرة ونخلة فوق كتفيها.

ينفذ ماء المطر إلى الأعماق، يغسل حبَّات القلب والمُنى والأماني الغائبة التي تأخَّرت. قالت: هذه أحلى الساعات، قلبي شراع أبيض، تعالَ أحملْكَ في خفقاته. رائع أن يسافر الفرد في المطر يجمع أصداف العالم، وضباب الأحزان، ووحشة الأزمنة.

ـ هل تعرفها يا صديقي؟ فيروز! ألا تعرف فيروز الجميلة؟ تداخلت الوجوه الفيروزية الكثيرة التي رأيتها في حياتي، وحاولت

(*) أهدي هذه القصّة إلى صديقي الدكتور كمال حسن وهبي.

(**) حاز كاتب هذه القصّة جائزة مركز ابن خلدون الإنمائي بالقاهرة (جائزة د. سعاد الصباح) للإبداع القصصي لعام ١٩٩١ م. وجائزة مجلّة الشاهد ـ جائزة النقد الأدبي ـ لعام ١٩٩١ م.

(***) مدن جزائرية جميلة جدّاً.

استحضار أكبر عدد من الجميلات، لكني في تلك اللحظة عجزت عن التعرُّف على وجه فيروز، حيث الزحام من جهة، والغربة الكابية من جهة، والأفعوان من جهة، وقلبي المضطرب، وخيوط المطر من جهة أخرى، وبدوْتُ كالمشلول، وتحسَّست جراحي. فما أنا إلَّا حبَّة رمل تائهة في صحراء غرادية لا تعرف جهة ولا شطّاً ولا كثيباً، وبدت ذاكرتي غير قادرة على استحضار أقرب الأشخاص إليَّ. ونـاديت: فيروز، أيتها الأميرة، أنْ احضري على جياد دياب بن غانم وأبي زيد الهلالي، واسكني ذاكرتي، وبدّدي حزني. هذا الغول الذي يُسربلني في مدينة الضباب والصوَّان، والتماثيل الصامتة هذه. ما أتت فيروز، وما أتت الخضراء، وكان الأمير دياب يبدِّد رمال الصحراء وبدوها وخيامها، ويناطح الزمن، ويجندل الفرسان، ويخطف «الست» بنت الملك صخر بن علقم لولده الأمير مرشد الذي أضناه الوجد والغرام(*). ونـاديت أي فيروز احضني بوحي وامنحيني شراعاً، وفرساً خضراء، بعدها سأخلف منافذ الصحراء ورائي، وأعانق أول غيمة، وأنسى هذه الصحراء وتماثيلها الجامدة. لكن فيروز الحلم كانت تفردُ شعرها الجميل للريح والمطر والذكريات الجميلة، ما سمعتني. كانت منهمكة في تلحين أشعار الأجداد الميامين الذين أحبُّوا وعشقوا في الحِلِّ والترحال، والغربة والمساءات الحزينة، وغنَّت فيروز:

بعثْتُ لـه الـذكرى شجَنْ فصبا وحنَّ إلى الـوطـن
دَنفٌ إذا ابتسم الخليُّ غشاه تعبيس الحزن
قلقُ الركائب ما استقرّ به السرى إلا ظعن
والبينُ أصعبُ ما يراه أخو الشدائد والمحن
من مبلغ تلك المرابعَ والمراتع والدِّمن
أشواقيَ اللاتي زَحمنَ الروح في مثوى البدن؟(**)

* * *

الشوارع التي أقطعها كل يوم عشرات المرَّات نسيت اسمي ونسيتها، باتت باهتة، ثمّة إشارات مرور جديدة وضعها البوليس في بدايات الشوارع.

أحاول استحضار أسماء الشوارع لكن عبثاً، أقطع المسافات الطويلة كل يوم، أقف ساعات طويلة أمام أكشاك بيع الصحف في شارعَي العربي بن مهيدي، وديدوش مراد، أتصفَّح المجلَّات والجرائد. أخبار الحسناوات وملكات جمال العالم والسينما والتلفزيون والرياضة، بتُّ أحفظها عن ظهر قلب. وحدها صور الزعماء السياسيين لم تستهوني يوماً ما، فأنا غبيّ حقيقي في فنِّ السياسة وأعلامها.

قالت حسناء: ضروري أن تعرف قليلاً من السياسة. في هذه المدينة تفوح رائحة السياسة في المنعطفات والزوايا والمقاهي. هنا كل أحزاب العالم، وكل يمين العالم ويساره ووسطه، وأنتَ «أطرش في الزفّة». وحدها الغربة يميني ويساري ووسطي. ولا أعرف إلَّا وجه الصفصافات المرتحلة الحزينة أبداً، وصوت فيروز الحلم يملأ مسامّ قلبي. تغصُّ الشوارع بالمارّة، وببائعي المواد المهرّبة من كل أصقاع العالم. أحاول أن أدقِّق جيّداً علَّني أكتشف وجهاً واحداً أعرفه في هذا الزحام الذي يملأ مسامّ الروح. كم أحلم أن أكتشفه لأطارده أينما يذهب، لأشدَّ على يديه، لأقبِّله بلهفة التائه الضائع بين مقاهي المدينة، وأزقَّتها وخمَّاراتها، ووحشتها وضبابها. تغيبُ الوجوه الأليفة كلها. يرشح قلبي بالأسيد والقطران. يضيع وقتي عبثاً في محاولة القبض على هذا الوجه، وأحاول أن أبحثَ عن وجهي المتنائي في الوحدة وضباب المدينة، لكني أفشل في إيجاده. وحدها الحانات والمقاهي والأرصفة والأشرعة المرتحلة والموانئ المهجورة تعرف وجهي، والوجوه التي لا يمكن أن تُمحى من ذاكرتي هي وجوه عمَّال المقاهي والخمَّارات، والمغتربين أمثالي.

-«هل تدعوني إلى كأس من البيرة»؟ قالت حسناء. تحرَّك في داخلي إحساس بالفرح، نما في قلبي مرج أخضر، فسرحتْ فيه طيور بجع، وغزالات بيضاء. جميل أن يشرب مغتربٌ فقد زورقه كأساً من البيرة مع واحدة كحسناء.

تندسّ يدي إلى أعماق جيوبي المهترئة، متلهِّفة لإيجاد المبلغ المطلوب. أتذكَّر أن بقية قليلة لا تزال معي، لكني لستُ متأكِّداً أنها كافية لقَدَحيْن من البيرة في مقهى من الدرجة العادية، فكيف في مقهى «عمراوة» ذي الطابع الخاص الذي اعتادت حسناء الدخول إليه دائماً؟

وتذكرتُ أنَّ أمّي لم ترسل لي دولاراً واحداً هذا الشهر. أيتها الأم.. الحلم.. النورس.. أنا منتفخ بالفقر والغاز، وقاذورات مطاعم الدرجة العاشرة.. هلاَّ تمدِّين لي يدك البيضاء..؟ ها هي هذه الجامعة العريقة ستطردني إلى درك المدينة، تراكمت الأقساط عليَّ، ومديرها العريق ذو الألف لقب أكاديمي يحذِّرني: أيّها الغريب إن لم تدفع أقساطك فسأصدر أمراً إلى مديرة مكتب الطلبة الأجانب لتلغي تسجيلك. وأتحسَّس آخر رسائل أمّي: «كن سروة وهامة في بلاد الغرباء.. انتهت أموالي.. بِعتُ أقراطي وعقودي ولآلئي لأجل دراساتك التافهة.. شيخ قبيلتنا يريد أن يطلّقني، إمَّا

(*) إشارة تاريخية إلى سيرة بني هلال.

(**) المقطوعة الشعرية للشاعر عبد الحي بن أبي بكر، المتوفى سنة ١٠٩٩.

أن تـأتي على أقـرب مركب. . وإمَّا لك الله والتشرُّد. . » وتمنَّيت أن أبصق في وجه شيخ القبيلة الذي تزوَّج والدتي شابَّةً غضَّة، وقـطف أزهارها وبنفسجها، وأكل كل بياراتها وزروعها، وهـا هو يـرميها في وجه الريح والمطر.

قالت حسناء: «ماذا قلت؟ حكماً أنت مـوافق». شدّتْ يـدي. . ضغطت عليها بقوّة. كانت قـطعة رهيفـة من الشفافيّـة، وتمنَّيتُ يد أمّي وقلبهـا وسرو بـلادي ونخيلهـا، وبيّـارات والـدي. وتـذكّـرت والدي السروة والهامة الذي قتلته حروب البدو والطوائف والعشائر. أيها الأب الغائب الحلم، ما ضرَّ القبائل والعشائر أن تلغي وحشيتها وهمجيّتها، وتقذف برشّاشاتها الأمريكية إلى قاع نهر «الشلف»؟.

ورغم ابتسامة حسناء الدافئة أحسست فجأة بفيصـل حاد بيننـا، شرخ عمره ألف سنة من الاغتراب والوحشة. كان وجههـا عاديـاً، حاولت أن أقنع نفسي بألفته وشفافيته. لكني عبثاً حاولت، فلا يزال الوجه غريباً. العينان والرمش والأنف والحاجب، والشعر الفـاحم، والوجه الأليف كالهرّة الوديعة، كل ما فيها استحال في تلك اللحـظة إلى رماد. . بهتت ابتسامتهـا. . غارت عينـاها إلى الـداخل. . كـان وجهها ينبض بأشياء غريبـة مجهولـة لم أستطع اكتشـافها، وتـذكَّرت فيروز ووجه أمّي.

* * *

على الرصيف الأيمن من شـارع «عبان رمضـان» تتراصّ مجمـوعة من الحـوانيت. أتـوهُ في الأزقّـة. أجـترّ صمتي ووحشتي وفقـري المدقع. ثياب النساء تصرخ بألوانها وتعربد مهتـاجة عـلى موسيقى «خوليو» و«مليكة دومران». (*) هذه البربرية الـرائعة التي غنّت لكـل شجـرة ولكـل نهر، ولكـل نـورس مـرتحـل في جبـال الأطلس والأوراس، وغابات بوفاريك (**).

صوت موسيقي راقص يأتي من الداخل. . يمدّد ذراعيه الناعمتين في محاولة ناجحة لاختطاف أقرب امرأة.

تتجمَّع النسوة. . يصبح الثوب حلماً. . ما أروع الأحلام الملغـاة التي تعلن حضورها فجأة!

ـ يا إلّهي ما أروع هذا الثوب؟. . «أوه مون ديو!».
ـ متى يأتي آخر الشهر لنقبض المرتب؟
ـ كالقمر أنت تظهرين به!. صدّقيني لا أجاملك.
ـ من أجود أقمشة لندن، يُستورد خصيصاً لمحلّنا.

تتداخل الأصـوات وتتعالى، ثم تهـدأ قليلاً، ثم تعـود إلى النعيق من جديد، ويمتصّها الصوت الموسيقي. يضع البائع أسطوانة جديدة لخوليو الذي سحر نساء العرب بزرقة عينيه وشعره الناعم.

تدير امرأة شابة مؤخّرتها لزميلاتها.
ـ ما شاء الله عروس!

يأتي صوت التاجر ذئبياً ماكـراً، تنتعش المرأة العـروس، ويأتيهـا إحساس عميق بأن الشمس لا تطلع إلا إكراماً لعينيها الجميلتين.

امرأة في الزاوية تستعرض ماركات العطور المصفوفة بانتـظام على الرفوف. يتقدَّم الذئب واثقاً.

وبحركة ديناميكيّة يـرتِّب شعرات نـافرة، يعيـدها إلى مـوضعها، فتغطِّي أذنيه، وجبهته المجروحة. يهمس في أذن المرأة: نسهـر الليلة معاً يا سيدتي، ما رأيكِ؟

ـ زوجتي غائبة. . في البيت أو في «الريفيرا» أو في «اسبلاناد»، لكِ الخيـار. كل شيء جـاهز، شقّـة فاخـرة، فيديـو وكافـة أسطوانـات العالم، ألا تحبِّين الموسيقى؟.

سيـارتي الـ «بي ـ إيم ـ دوبـل في BMW» الـرمـاديـة هنـاك، انظري. . إنها في الطرف الثاني. . عروس حقيقيّة. الثامنة يا حلوتي نحن في الانـتظار، أرجو أن تقبـلي هذه الهـدية المتـواضعة، زجـاجة عطر باريسيّة حبّاً لعينيك الجميلتين.

قبضت السيِّدة الفاضلة الزجاجـة بيد من نـار. . همست وادعة، وقد ترنَّح رأسها: الثامنة بجوار السيارة موعدنـا. . سأنـتظرك. . لا تتأخَّرْ.

عاد المطر إلى السقوط ثانية، تكوَّرت المدينة عـلى نفسها، تشكّـل ضباب قائم، سدَّ منافذ المدينة وبوَّاباتها، وسرعان ما أغلقت المـدينة بوَّاباتها أمام كل القادمين الجدد. تحلَّق الكل حول أسـوار المدينـة في انتظار موسم جـديد، وكـانت فيروز تفـرد شعرهـا لشواطئ البحـر الأحمر، زارعةً السروَ والياسمين، فاردةً قلبها لنوارس الأفق والبحـر وقد أخذت تغنِّي:

ريـح الجنـوب أراك مـدنفـةً — هل شفَّ جسمك مثليَ السفر
وأراكِ طـيِّـبـةً مـعـطـرةً — هـل فيكِ من أحبـابنـا خَـبَرٌ؟
تـلك الأحبّـة روض ودّهـم — خَضِـلٌ وعمـر صفـائهم خَضِرُ

الجزائر العاصمة ١٩٨٤/٢/٢٠م.

(*) مطربة جزائرية تغني بالبربرية.
(**) أماكن جميلة في الجزائر.